سَكِينَةٌ وَطُمَأْنِينَةٌ

المقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْإِيمَانَ سَكِينَةً لِلْقُلُوبِ، وَجَعَلَ الْأَمْنَ نِعْمَةً مِنْ أَجَلِّ نِعَمِهِ عَلَى عِبَادِهِ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ وَأَشْكُرُهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، جَعَلَ السَّكِينَةَ نُورًا يَقْذِفُهُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَهِدَايَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد:

🗀 إِنَّنَا نَعِيشُ فِي زَمَانٍ كَثُرَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الْقَلَقِ، وَاضْطَرَبَتْ فِيهِ النُّفُوسُ، وَانْتَشَرَتِ الْفِتَنُ، وَأَصْبَحَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعِيشُونَ فِي خَوْفٍ نَفْسِيٍّ، وَضُغُوطٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَاضْطِرَابَاتٍ فِكْرِيَّةٍ وَأُسَرِيَّةٍ، حَتَّى أَصْبَحَ الْبَحْثُ عَنِ السَّكِينَةِ مَطْلَبًا عَالَمِيًّا، تُنْفَقُ مِنْ أَجْلِهِ الْأَمْوَالُ، وَتُقَامُ لَهُ الْمُؤْتَمَرَاتُ، وَتُكْتَبُ فِيهِ الدِّرَاسَاتُ.

✍لَكِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ سَبَقَ الْبَشَرِيَّةَ كُلَّهَا، فَبَيَّنَ أَنَّ السَّكِينَةَ لَيْسَتْ سِلْعَةً تُشْتَرَى، وَلَا دَوَاءً يُؤْخَذُ، وَإِنَّمَا هِيَ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ يَمْنَحُهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

قال -ﷻ-: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:4].

✍لَمْ يَقُلْ: «صَنَعُوهَا»، أَوِ «اكْتَسَبُوهَا»، وَإِنَّمَا أَنْزَلَهَا؛ لِأَنَّهَا مِنْحَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَمِنْ هُنَا كَانَ حَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ الْعَظِيمِ.

المحور الأول

🗁 لِمَاذَا تَحْتَاجُ الْمُجْتَمَعَاتُ إِلَى السَّكِينَةِ؟ إِنَّ الْمُجْتَمَعَاتِ لَا تَقُومُ عَلَى الْمَالِ وَحْدَهُ، وَلَا عَلَى الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَحْدَهَا، وَلَا عَلَى التَّقَدُّمِ الصِّنَاعِيِّ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا تَقُومُ عَلَى الْإِنْسَانِ؛ فَإِذَا فَقَدَ الْإِنْسَانُ أَمْنَهُ النَّفْسِيَّ فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ، لِأَنَّ السَّكِينَةَ هِيَ الْأَسَاسُ الَّذِي يَمْنَحُهُ الْقُدْرَةَ عَلَى الْعَمَلِ وَالْإِنْتَاجِ وَالْإِبْدَاعِ، وَتُعَزِّزُ فِيهِ الثِّقَةَ

بِنَفْسِهِ وَبِمُجْتَمَعِهِ. وَعِنْدَمَا يَعِيشُ الْإِنْسَانُ فِي طُمَأْنِينَةٍ وَاسْتِقْرَارٍ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَاهِمَ فِي بِنَاءِ وَطَنِهِ، وَأَنْ يُقِيمَ عِلَاقَاتٍ قَائِمَةً عَلَى التَّعَاوُنِ وَالْمَحَبَّةِ وَالِاحْتِرَامِ. أَمَّا إِذَا انْتَشَرَ الْخَوْفُ وَالْقَلَقُ، ضَعُفَ الْإِنْتَاجُ، وَتَفَكَّكَتِ الرَّوَابِطُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ، وَتَعَطَّلَتْ مَسِيرَةُ التَّنْمِيَةِ وَالتَّقَدُّمِ. لِذَلِكَ تُعَدُّ السَّكِينَةُ نِعْمَةً عَظِيمَةً، وَرَكِيزَةً أَسَاسِيَّةً لِقِيَامِ الْمُجْتَمَعَاتِ وَازْدِهَارِهَا.

وَلِهَذَا امْتَنَّ اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ بِنِعْمَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾.

قال رسول الله ﷺ:"مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا".رواه الترمذي

قَالَ الْعُلَمَاءُ: جَمَعَ اللَّهُ مَصَالِحَ الدُّنْيَا كُلَّهَا فِي الطَّعَامِ وَالْأَمْنِ؛ فَبِالطَّعَامِ تَحْيَا الْأَبْدَانُ وَتَقْوَى، وَبِالْأَمْنِ تَطْمَئِنُّ النُّفُوسُ وَتَسْتَقِرُّ الْحَيَاةُ. فَإِذَا وُجِدَ الْقُوتُ وَتَحَقَّقَ الْأَمْنُ، اسْتَطَاعَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَعْمَلَ وَيُبْدِعَ وَيُسَاهِمَ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعِهِ، أَمَّا إِذَا فُقِدَ أَحَدُهُمَا، اضْطَرَبَتِ الْحَيَاةُ، وَضَعُفَ الِاسْتِقْرَارُ، وَتَعَذَّرَ عَلَى النَّاسِ التَّفَرُّغُ لِلْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالْعُمْرَانِ.

← وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «لَوْ خُيِّرْتُ بَيْنَ الْأَمْنِ وَالرِّزْقِ لَاخْتَرْتُ الْأَمْنَ؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ مَعَ الْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنَ الْخَوْفِ مَعَ الْكَثِيرِ».

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[البقرة: 155].

مِنْ لَطَائِفِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى بَدَأَ بِالْخَوْفِ قَبْلَ الْجُوعِ وَنَقْصِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ؛ لِأَنَّ الْخَوْفَ يَتَعَلَّقُ بِأَصْلٍ عَظِيمٍ مِنْ أُصُولِ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَهُوَ الْأَمْنُ. فَإِذَا فَقَدَ الْإِنْسَانُ الْأَمْنَ، اضْطَرَبَتْ حَيَاتُهُ، وَلَمْ يَهْنَأْ بِطَعَامٍ وَلَا مَالٍ وَلَا غَيْرِهِمَا.

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[النحل:112].

✡الْجُوعُ وَالْخَوْفُ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ الَّتِي تُبْتَلَى بِهَا الْأُمَمُ وَالْمُجْتَمَعَاتُ؛ لِأَنَّهُمَا يَمَسَّانِ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى الْإِنْسَانِ: الْأَمْنَ فِي نَفْسِهِ، وَالْكِفَايَةَ فِي رِزْقِهِ.

🗀وَهَذَا لِأَنَّ الْأَمْنَ هُوَ أَسَاسُ الْحَيَاةِ الْمُسْتَقِرَّةِ، وَبِهِ يَطْمَئِنُّ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، فَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ وَيَجْتَهِدَ وَيَنْتِجَ. أَمَّا الْخَوْفُ، فَإِنَّهُ يُذْهِبُ رَاحَةَ الْقَلْبِ، وَيُضْعِفُ الْهِمَّةَ، وَيُفْسِدُ لَذَّةَ الْمَالِ وَكَثْرَةِ الرِّزْقِ، فَلَا يَنْتَفِعُ الْإِنْسَانُ بِخَيْرَاتِ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ يَعِيشُ فِي قَلَقٍ وَاضْطِرَابٍ. لِذَلِكَ كَانَ الْأَمْنُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِهِ تَقُومُ الْمُجْتَمَعَاتُ وَتَزْدَهِرُ الْحَيَاةُ.

🗀وَالْيَوْمَ نَرَى دُوَلًا غَنِيَّةً، لَكِنَّهَا تُعَانِي مِنِ ارْتِفَاعِ مُعَدَّلَاتِ الِانْتِحَارِ، وَالتَّفَكُّكِ الْأُسَرِيِّ، وَالِاضْطِرَابَاتِ النَّفْسِيَّةِ؛ لِأَنَّ السَّكِينَةَ لَا تُشْتَرَى بِالْمَالِ، وَلَا تُقَاسُ بِكَثْرَةِ الْمُمْتَلَكَاتِ، بَلْ هِيَ نِعْمَةٌ يَقْذِفُهَا اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ، وَتَنْشَأُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَالْأَمْنِ وَاسْتِقْرَارِ الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ. فَقَدْ يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ الْمَالَ الْوَفِيرَ، وَلَكِنَّهُ يَعِيشُ فِي قَلَقٍ وَوَحْدَةٍ وَاضْطِرَابٍ، فَلَا يَجِدُ سَعَادَةً حَقِيقِيَّةً، بَيْنَمَا يَعِيشُ آخَرُ بِرِزْقٍ قَلِيلٍ، وَلَكِنَّهُ يَنْعَمُ بِالسَّكِينَةِ وَالرِّضَا، فَيَكُونُ أَكْثَرَ رَاحَةً وَاسْتِقْرَارًا.

المحور الثاني

ما هي السكينة؟

📋 قَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هِيَ طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ عِنْدَ اضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ».

وَقَالَ الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «هِيَ سُكُونٌ يُفِيضُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ».

📋وَقَالَ ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «السَّكِينَةُ حَالَةٌ قَلْبِيَّةٌ تَمْنَعُ صَاحِبَهَا مِنَ الْجَزَعِ وَالِاضْطِرَابِ».

⭘فَالسَّكِينَةُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ رَاحَةٍ نَفْسِيَّةٍ، وَإِنَّمَا هِيَ قُوَّةٌ إِيمَانِيَّةٌ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ ثَابِتًا أَمَامَ الْمِحَنِ وَالشَّدَائِدِ، فَلَا تَتَزَعْزَعُ نَفْسُهُ، وَلَا يَضْطَرِبُ قَلْبُهُ، بَلْ يَبْقَى مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ، وَاثِقًا بِوَعْدِهِ، رَاضِيًا بِقَضَائِهِ. وَبِهَذِهِ السَّكِينَةِ يَقْوَى عَلَى مُوَاجَهَةِ الصِّعَابِ، وَيَتَحَمَّلُ الْبَلَاءَ بِصَبْرٍ وَاحْتِسَابٍ، وَيَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ بِحِكْمَةٍ وَاتِّزَانٍ، فَلَا يَغْلِبُهُ الْخَوْفُ، وَلَا تُضْعِفُهُ الْأَزَمَاتُ، لِأَنَّ قَلْبَهُ مُتَعَلِّقٌ بِاللَّهِ، مُسْتَمِدٌّ مِنْهُ الْعَوْنَ وَالثَّبَاتَ.

المحور الثالث

السكينة في القرآن الكريم

ورد لفظ السكينة في القرآن ست مرات، وكلها في مواقف عظيمة.

أَوَّلًا: السَّكِينَةُ فِي الْهِجْرَةِ

🗀حِينَ أَحَاطَ الْمُشْرِكُونَ بِالْغَارِ، قَالَ أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا». وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ بِكُلِّ يَقِينٍ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ، وَحَفِظَ رَسُولَهُ وَصَاحِبَهُ، وَأَبْطَلَ كَيْدَ الْمُشْرِكِينَ.

☜وَهُنَا يَنْبَغِي أَنْ نَقِفَ مَعَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَظِيمَةِ: الْمَكَانُ ضَـــيِّقٌ، وَالْعَدُوُّ قَرِيبٌ، وَلَا يُوجَدُ سَـــبَبٌ مَادِّيٌّ ظَاهِرٌ لِلنَّجَاةِ، وَلَكِنَّ السَّكِينَةَ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ مَنَحَتْهُمُ الثَّبَاتَ وَالْيَقِينَ، وحولت الْخَوْفُ إِلَى طُمَأْنِينَةٍ، وَالضِّيقُ إِلَى أَمَلٍ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ.

🗀 إِنَّ الْإِنْسَـــانَ إِذَا امْتَلَأَ قَلْبُهُ يَقِينًا بِاللَّهِ ، وَعَظُمَ تَوَكُّلُهُ عَلَيْهِ، صَـــغُرَتْ أَمَامَهُ الدُّنْيَا كُلُّهَا، وَهَانَتْ فِي عَيْنِهِ الْمَخَاوِفُ وَالصِّـــعَابُ؛ لِأَنَّهُ يُوقِنُ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ بِحِفْظِهِ وَنَصْـــرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ فَلَا يَغْلِبُهُ أَحَدٌ، وَلَا يَخْذُلُهُ شَيْءٌ.

ثَانِيًا: السَّكِينَةُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ

🗀خَرَجَ الصَّـحَابَةُ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِلْعُمْرَةِ، فَمَنَعَهُمُ الْمُشْـرِكُونَ مِنْ دُخُولِ مَكَّةَ، وَبَدَتْ شُـرُوطُ الصُّـلْحِ فِي ظَاهِرِهَا شَاقَّةً وَثَقِيلَةً عَلَى النُّفُوسِ، حَتَّى قَالَ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ؟» وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ: ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، فَاطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ، وَسَلَّمُوا لِحُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَكَانَتْ عَاقِبَةُ ذَلِكَ أَنْ تَحَوَّلَتِ الْمِحْنَةُ إِلَى أَعْظَمِ فَتْحٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ، وَانْتَشَرَ الدِّينُ بَعْدَ الصُّلْحِ انْتِشَارًا عَظِيمًا.

☜وَهَكَذَا فَإِنَّ السَّكِينَةَ تَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ بِعَيْنِ الْحِكْمَةِ لَا بِعَيْنِ الِانْفِعَالِ، وَيُقَدِّرُ الْأُمُورَ بِهُدُوءٍ وَبَصِيرَةٍ، فَلَا يَسْتَعْجِلُ الْأَحْكَامَ، وَلَا تَقُودُهُ الْعَاطِفَةُ إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، بَلْ يَثِقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، وَيُوقِنُ أَنَّ مَا يَبْدُو فِي ظَاهِرِهِ مَشَقَّةً قَدْ يَكُونُ فِي بَاطِنِهِ خَيْرًا عَظِيمًا وَفَتْحًا مُبِينًا.

ثَالِثًا: السَّكِينَةُ يَوْمَ حُنَيْنٍ

🗀لَمَّا اضْطَرَبَ الْمُسْلِمُونَ فِي بِدَايَةِ الْمَعْرَكَةِ، وَتَرَاجَعَ بَعْضُهُمْ بِسَبَبِ شِدَّةِ الْمُفَاجَأَةِ وَكَثْرَةِ عَدَدِ الْعَدُوِّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، فَنَزَلَتِ الطُّمَأْنِينَةُ فِي الْقُلُوبِ بَعْدَ الِاضْطِرَابِ، وَثَبَتَتِ النُّفُوسُ بَعْدَ الْخَوْفِ، وَعَادَ الْمُؤْمِنُونَ إِلَى مَوَاقِفِ الْبَذْلِ وَالْجِهَادِ، فَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لَهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ.

✍وَهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ السَّكِينَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا ثَانَوِيًّا فِي حَيَاةِ الْمُؤْمِنِ، بَلْ هِيَ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ؛ فَالْقَلْبُ إِذَا امْتَلَأَ بِالثِّقَةِ بِاللَّهِ لَمْ تَغْلِبْهُ الْمِحَنُ، وَلَا تُحْبِطُهُ الشَّدَائِدُ، بَلْ يَبْقَى ثَابِتًا يَعْمَلُ بِحِكْمَةٍ وَشَجَاعَةٍ. فَقَدْ يَكُونُ الْعَدَدُ قَلِيلًا، وَالظُّرُوفُ صَعْبَةً، وَلَكِنَّ قَلْبًا مُطْمَئِنًّا بِاللَّهِ يَكُونُ أَقْوَى مِنْ كُلِّ خَوْفٍ، وَأَثْبَتَ أَمَامَ كُلِّ تَحَدٍّ.

←فَالسَّكِينَةُ تَمْنَحُ الْمُؤْمِنَ الْقُوَّةَ الدَّاخِلِيَّةَ الَّتِي تَجْعَلُهُ يَرَى الْأَزْمَاتِ بِعَيْنِ الْيَقِينِ، وَيُوَاجِهُهَا بِالثَّبَاتِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ السَّكِينَةَ فَقَدْ رُزِقَ مِفْتَاحًا مِنْ مَفَاتِيحِ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ.

المحور الرابع

أَعْظَمُ مَصَادِرِ السَّكِينَةِ

أَوَّلًا: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

🗀فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مِنْ أَعْظَمِ مَصَادِرِ السَّكِينَةِ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ، وَتَسْكُنُ بِهِ النُّفُوسُ، وَتَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحُ رَاحَتَهَا وَأُنْسَهَا. فَإِذَا أَقْبَلَ الْعَبْدُ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تِلَاوَةً وَتَدَبُّرًا وَعَمَلًا، وَجَدَ فِيهِ الْهُدَى وَالثَّبَاتَ، وَخَفَّتْ عَنْهُ هُمُومُ الدُّنْيَا وَمَخَاوِفُهَا.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ... ».

←فَفِي مَجَالِسِ الْقُرْآنِ تَنْزِلُ السَّكِينَةُ، وَتَحِلُّ الرَّحْمَةُ، وَتَحُفُّ الْمَلَائِكَةُ أَهْلَ الذِّكْرِ، لِأَنَّ الْقُلُوبَ تَحْيَا بِذِكْرِ اللَّهِ، وَتَسْتَقِيمُ بِالارْتِبَاطِ بِوَحْيِهِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعْتُمْ مِنْ كَلَامِ رَبِّكُمْ».

فَالْقَلْبُ الطَّاهِرُ يَجِدُ لَذَّتَهُ فِي الْقُرْآنِ، وَيَجْعَلُهُ زَادَهُ فِي الطَّرِيقِ، وَمَلْجَأَهُ عِنْدَ الْكُرُوبِ وَالضِّيقِ.

وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ الْإِنْسَانُ سَبَبُهُ الْبُعْدُ عَنْ الْقُرْآنِ، فَكُلَّمَا ابْتَعَدَ الْقَلْبُ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ زَادَ وَحْشَتُهُ وَقَلَقُهُ، وَكُلَّمَا اقْتَرَبَ مِنْهُ امْتَلَأَ طُمَأْنِينَةً وَسَكِينَةً؛ لِأَنَّ فِي الْقُرْآنِ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وَرَاحَةَ النُّفُوسِ.

ثَانِيًا: ذِكْرُ اللَّهِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

فَذِكْرُ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ السَّكِينَةِ وَرَاحَةِ الْقَلْبِ؛ فَبِهِ يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِمَعِيَّةِ اللَّهِ وَقُرْبِهِ، وَتَسْكُنُ نَفْسُهُ بَعْدَ الْقَلَقِ، وَيَطْمَئِنُّ قَلْبُهُ بَعْدَ الِاضْطِرَابِ. فَالذِّكْرُ لَيْسَ مُجَرَّدَ أَلْفَاظٍ تُقَالُ بِاللِّسَانِ، بَلْ هُوَ عِبَادَةٌ تُحْيِي الْقَلْبَ، وَتَرْبِطُهُ بِخَالِقِهِ، وَتَمْنَحُهُ قُوَّةً وَثَبَاتًا فِي وَاجِهَةِ أَحْدَاثِ الْحَيَاةِ.

وَقَالَ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الذِّكْرُ لِلْقَلْبِ مِثْلُ الْمَاءِ لِلسَّمَكِ».

☜فَهَلْ يَعِيشُ السَّمَكُ بِلَا مَاءٍ؟! كَذَلِكَ الْقَلْبُ لَا يَحْيَا بِلَا ذِكْرٍ، فَإِذَا انْقَطَعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ضَعُفَ وَقَسَا، وَأَصَابَهُ الْقَلَقُ وَالْوَحْشَةُ، وَإِذَا عَمَرَهُ الذِّكْرُ امْتَلَأَ نُورًا وَطُمَأْنِينَةً وَسَكِينَةً.

←وَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلُ الْإِيمَانِ يَلْجَؤُونَ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ؛ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَفِي الْفَرَحِ وَالْكَرْبِ، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُلُوبَ لَا يَمْلَؤُهَا شَيْءٌ كَمَا يَمْلَؤُهَا التَّعَلُّقُ بِاللَّهِ وَالْأُنْسُ بِذِكْرِهِ.

ثَالِثًا: الدُّعَاءُ

كَانَ النَّبِيُّ -ﷺ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى» صحيح الترمذي.

وَكَانَ -ﷺ-: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» : صحيح الجامع.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- لِمُعَاذٍ: «أَلَا أُعَلِّمُكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ، لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ دَيْنًا، لَأَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ؟ قُلْ: يَا مُعَاذُ، اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، تُعْطِيهِمَا مَنْ تَشَاءُ، وَتَمْنَعُ مِنْهُمَا مَنْ تَشَاءُ، ارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِينِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ» إسناده جيد.

فَالدُّعَاءُ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ السَّكِينَةِ؛ لِأَنَّهُ يُعَلِّمُ الْعَبْدَ الِافْتِقَارَ إِلَى اللَّهِ، وَيُرَبِّطُ قَلْبَهُ بِرَبِّهِ، فَيَشْعُرُ أَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ فِي مُوَاجَهَةِ الْحَيَاةِ وَمَا فِيهَا مِنْ تَحَدِّيَاتٍ، بَلْ لَهُ رَبٌّ يَسْمَعُ دُعَاءَهُ، وَيَعْلَمُ حَالَهُ، وَيَدَبِّرُ أَمْرَهُ.

فَإِذَا رَفَعَ الْعَبْدُ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ صَادِقًا، انْكَسَرَ قَلْبُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَزَالَ عَنْهُ الْقَلَقُ؛ لِأَنَّهُ أَلْقَى هُمُومَهُ عَلَى مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ بَعْضَ الْأَبْوَابِ قَدْ تُغْلَقُ فِي وَجْهِهِ، وَلَكِنَّ بَابَ اللَّهِ يَبْقَى مَفْتُوحًا لَا يُرَدُّ مَنْ دَعَاهُ.

وَلِذَلِكَ كَانَ الدُّعَاءُ مَلْجَأَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، فَبِهِ تَقْوَى الصِّلَةُ بِاللَّهِ، وَتَسْكُنُ النُّفُوسُ، وَيَطْمَئِنُّ الْقَلْبُ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. فَالسَّكِينَةُ لَا تَنْزِلُ عَلَى قَلْبٍ مُعْرِضٍ عَنْ رَبِّهِ، وَإِنَّمَا تَسْكُنُ فِي قَلْبٍ عَرَفَ ضَعْفَهُ، وَلَجَأَ إِلَى قُوَّةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ.

المحور الخامس

كَيْفَ نَنْشُرُ السَّكِينَةَ دَاخِلَ الْأُسْرَةِ؟ إِنَّ أَوَّلَ مُجْتَمَعٍ يَعِيشُ فِيهِ الْإِنْسَانُ هُوَ الْأُسْرَةُ، فَإِذَا صَلَحَ الْبَيْتُ وَامْتَلَأَ بِالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، صَلَحَ الْمُجْتَمَعُ وَقَوِيَتْ رَوَابِطُهُ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾.

تَأَمَّلُوا هَذَا التَّعْبِيرَ الْقُرْآنِيَّ الْعَظِيمَ؛ فَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ تَعَالَى: لِتَعِيشُوا مَعَهَا فَقَطْ، وَلَمْ يَقُلْ: لِتَسْتَمْتِعُوا بِهَا فَقَطْ، بَلْ قَالَ: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾؛ فَالزَّوْجَةُ سَكَنٌ لِلزَّوْجِ، وَالزَّوْجُ سَكَنٌ لِلزَّوْجَةِ، وَالْبَيْتُ الْمُؤْمِنُ مَوْطِنٌ لِلطُّمَأْنِينَةِ وَالرَّاحَةِ.

فَالْبَيْتُ الْمُسْلِمُ لَيْسَ فُنْدُقًا لِلْأَكْلِ وَالنَّوْمِ فَقَطْ، وَلَا مَكَانًا يَجْتَمِعُ فِيهِ أَفْرَادُ الْأُسْرَةِ بِأَجْسَادِهِمْ وَتَفْتَرِقُ قُلُوبُهُمْ، بَلْ هُوَ مَوْطِنٌ لِلسَّكِينَةِ، وَمَدْرَسَةٌ لِلْمَحَبَّةِ، وَمَكَانٌ يَجِدُ فِيهِ الْإِنْسَانُ الْأَمَانَ وَالدِّعْمَ وَالرَّاحَةَ.

وَمِنْ وَسَائِلِ تَحْقِيقِ السَّكِينَةِ فِي الْأُسْرَةِ:

- حُسْنُ الْحِوَارِ: فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تَبْنِي الْقُلُوبَ، وَالْحِوَارُ الْهَادِئُ يَحُلُّ الْمُشْكِلَاتِ قَبْلَ أَنْ تَكْبُرَ.
- خَفْضُ الصَّوْتِ: فَالْهُدُوءُ فِي الْحَدِيثِ يُشْعِرُ أَهْلَ الْبَيْتِ بِالاحْتِرَامِ وَالطُّمَأْنِينَةِ.
- الْعَفْوُ عِنْدَ الْخَطَإِ: فَلَا تَخْلُو الْبُيُوتُ مِنَ الْأَخْطَاءِ، وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ يَتَجَاوَزُ وَيُصْلِحُ.
- الِاجْتِمَاعُ عَلَى الصَّلَاةِ: فَالصَّلَاةُ تَرْبِطُ الْقُلُوبَ بِاللَّهِ، وَتَجْعَلُ الْبَيْتَ مَحَلًّا لِلْبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ.
- قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ فِي الْبَيْتِ: فَبِكَلَامِ اللَّهِ تَحْيَا الْقُلُوبُ، وَتَنْزِلُ السَّكِينَةُ.
- تَرْكُ الشِّجَارَاتِ أَمَامَ الْأَبْنَاءِ: فَالْأَبْنَاءُ يَتَأَثَّرُونَ بِمَا يَرَوْنَ وَيَسْمَعُونَ، وَالْبَيْتُ الْهَادِئُ يَزْرَعُ فِي نُفُوسِهِمُ الْأَمَانَ.
- إِظْهَارُ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ: فَالْكَلِمَاتُ الطَّيِّبَةُ وَالْمَوَدَّةُ وَالاحْتِرَامُ تُقَوِّي رَوَابِطَ الْأُسْرَةِ وَتَنْشُرُ السَّكِينَةَ فِيهَا.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»

فَخَيْرِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَا تُقَاسُ بِمَا يُظْهِرُهُ لِلنَّاسِ خَارِجَ بَيْتِهِ فَقَطْ، بَلْ بِمَا يُقَدِّمُهُ لِأَهْلِهِ مِنْ رَحْمَةٍ وَرِفْقٍ وَحُسْنِ مُعَامَلَةٍ؛ فَمَنْ أَرَادَ نَشْرَ السَّكِينَةِ فِي الْمُجْتَمَعِ فَلْيَبْدَأْ مِنْ بَيْتِهِ.

المحور السادس

كَيْفَ نَنْشُرُ السَّكِينَةَ فِي الْمُجْتَمَعِ؟

إِنَّ السَّـــكِينَةَ لَا تَكُونُ فِي الْبُيُوتِ فَقَطْ، بَلْ تَنْتَشِـــرُ فِي الْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ إِذَا تَعَامَلَ أَفْرَادُهُ بِالْإِيمَانِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ. وَكُلُّ مُسْلِمٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا فِي نَشْرِ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ بَيْنَ النَّاسِ.

١ -الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ».

فَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَى الْقُلُوبِ، وَتُطْفِئُ نَارَ الْخِلَافِ، وَتُقَوِّي رَوَابِطَ الْمَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ. وَرُبَّ كَلِمَةٍ صَـادِقَةٍ أَحْيَتْ قَلْبًا يَائِسًـا، وَرَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتِ مَكْرُوبٍ، وَأَصْـلَحَتْ بَيْنَ مُتَخَاصِـمَيْنِ، وَفِي الْمُقَابِلِ رُبَّ كَلِمَةٍ جَارِحَةٍ هَدَمَتْ أُسْرَةً، وَقَطَعَتْ رَحِمًا، وَأَوْقَعَتْ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ.

٢ -الْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « ألا أخبرُكم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ ؟ قالوا: بلى، قال: إصلاحُ ذاتِ البينِ ، وفسادُ ذاتِ البينِ الحالِقةُ» صحيح أبي داود.

فَالْمُصْـلِحُ بَيْنَ النَّاسِ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ بَعْدَ تَفَرُّقِهَا، وَيُزِيلُ الْأَحْقَادَ، وَيَغْرِسُ الْمَحَبَّةَ وَالتَّسَـامُحَ، وَبِذَلِكَ يَنْتَشِـرُ الْأَمْنُ وَالِاسْتِقْرَارُ فِي الْمُجْتَمَعِ.

٣ -نَشْرُ الرَّحْمَةِ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»صحيح الترمذي.

فَالرَّحْمَةُ خُلُقٌ عَظِيمٌ، تَظْهَرُ فِي الرِّفْقِ بِالصَّغِيرِ، وَاحْتِرَامِ الْكَبِيرِ، وَمُسَـاعَدَةِ الْمُحْتَاجِ، وَمُوَاسَـاةِ الْمُبْتَلَى. أَمَّا الْقُلُوبُ الْقَاسِيَةُ، فَإِنَّهَا لَا تَغْرِسُ إِلَّا الْجَفَاءَ وَالْخَوْفَ، وَلَا تَنْشُرُ السَّكِينَةَ بَيْنَ النَّاسِ.

٤ -الْعَدْلُ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾.

فَالْعَدْلُ أَسَاسُ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَسُودَ السَّكِينَةُ فِي مُجْتَمَعٍ يَنْتَشِرُ فِيهِ الظُّلْمُ وَتُضَيَّعُ فِيهِ الْحُقُوقُ. فَلَا أَمْنَ مَعَ الظُّلْمِ، وَلَا طُمَأْنِينَةَ مَعَ أَكْلِ حُقُوقِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا يَشْعُرُ الْجَمِيعُ بِالسَّكِينَةِ إِذَا أُعْطِيَ كُلُّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ.

٥ -مُكَافَحَةُ الشَّائِعَاتِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

فَالْإِسْلَامُ يَدْعُونَا إِلَى التَّثَبُّتِ مِنَ الْأَخْبَارِ، وَعَدَمِ نَقْلِ كُلِّ مَا نَسْمَعُهُ أَوْ نَقْرَؤُهُ؛ لِأَنَّ الشَّائِعَاتِ تُفْسِدُ الْعَلَاقَاتِ، وَتُثِيرُ الْفِتَنَ، وَتَنْشُرُ الْخَوْفَ وَالْبَلْبَلَةَ. وَكَمْ مِنْ أُسْرَةٍ تَفَكَّكَتْ، وَكَمْ مِنْ مُجْتَمَعٍ اضْطَرَبَ، بِسَبَبِ رِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ أَوْ خَبَرٍ لَمْ يُتَحَقَّقْ مِنْ صِحَّتِهِ.

الْمَحْوَرُ السَّابِعُ:

السَّكِينَةُ فِي كَلَامِ السَّلَفِ

قَالَ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا يَفْعَلُ أَعْدَائِي بِي؟ إِنَّ جَنَّتِي وَبُسْتَانِي فِي صَدْرِي».

فَقَدْ كَانَتْ سَكِينَتُهُ نَابِعَةً مِنْ قُوَّةِ إِيمَانِهِ وَثِقَتِهِ بِاللَّهِ، فَلَمْ تَكُنِ السَّعَادَةُ عِنْدَهُ مُرْتَبِطَةً بِحُرِّيَّةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ مَنْصِبٍ، بَلْ بِصِلَتِهِ بِرَبِّهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُ طُمَأْنِينَتَهُ.

وَقَالَ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِي الْقَلْبِ فَاقَةٌ لَا يَسُدُّهَا إِلَّا اللَّهُ».

فَمَهْمَا امْتَلَكَ الْإِنْسَانُ مِنْ أَمْوَالٍ أَوْ مَنَاصِبَ أَوْ مَلَذَّاتٍ، فَإِنَّ قَلْبَهُ لَا يَشْبَعُ وَلَا يَسْتَقِرُّ إِلَّا بِالْإِيمَانِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَالْأُنْسِ بِهِ.

وَقَالَ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اطْلُبُوا حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ عِنْدَ ثَلَاثٍ: الصَّلَاةِ، وَالْقُرْآنِ، وَالذِّكْرِ».

فَمَنْ وَجَدَ قَلْبَهُ مُقْبِلًا عَلَى هَذِهِ الْعِبَادَاتِ، فَقَدْ أَصَابَ مَفَاتِيحَ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ، وَمَنْ حُرِمَهَا فَلْيُرَاجِعْ قَلْبَهُ وَصِلَتَهُ بِرَبِّهِ.

📜وَقَالَ الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السَّعَادَةِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهَا بِالسُّيُوفِ».

☜وَمَا هِيَ هَذِهِ السَّعَادَةُ؟ إِنَّهَا سَعَادَةُ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ، وَسَكِينَةُ الْقَلْبِ الَّتِي لَا تُشْتَرَى بِمَالٍ، وَلَا تُنَالُ بِجَاهٍ، بَلْ هِيَ هِبَةٌ رَبَّانِيَّةٌ لِمَنْ صَدَقَ مَعَ اللَّهِ، وَعَمَرَ قَلْبَهُ بِذِكْرِهِ وَطَاعَتِهِ.

المحور الثامن

مُعَوِّقَاتُ السَّكِينَةِ فِي عَصْرِنَا

🗀إِنَّ السَّكِينَةَ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَضْعُفُ أَوْ تَغِيبُ عَنْ الْقَلْبِ بِسَبَبِ بَعْضِ الْمُؤَثِّرَاتِ الَّتِي انْتَشَرَتْ فِي زَمَانِنَا، وَمِنْ أَخْطَرِهَا:

🔴الْإِفْرَاطُ فِي اسْتِخْدَامِ وَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الِاجْتِمَاعِيِّ، حَتَّى أَصْبَحَتْ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ مَصْدَرًا لِلْمُقَارَنَاتِ، وَالْقَلَقِ، وَالِانْشِغَالِ بِحَيَاةِ الْآخَرِينَ، فَيَضْعُفُ الرِّضَا، وَتَكْثُرُ الْهُمُومُ.

🔴نَشْرُ الشَّائِعَاتِ دُونَ تَثَبُّتٍ، فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الْمَكْذُوبَةَ قَدْ تُفْسِدُ الْعَلَاقَاتِ، وَتُثِيرُ الْفِتَنَ، وَتَنْشُرُ الْخَوْفَ وَالِاضْطِرَابَ فِي الْمُجْتَمَعِ.

🔴خِطَابُ الْكَرَاهِيَةِ وَالتَّنَمُّرُ الْإِلِكْتُرُونِيُّ، فَإِنَّهُمَا يُؤْذِيَانِ النُّفُوسَ، وَيَزْرَعَانِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، وَيُفْقِدَانِ الْمُجْتَمَعَ رُوحَ الْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ.

🔴ضَعْفُ الرَّوَابِطِ الْأُسَرِيَّةِ، بِسَبَبِ انْشِغَالِ كُلِّ فَرْدٍ بِعَالَمِهِ الْخَاصِّ، فَيَقِلُّ الْحِوَارُ، وَتَضْعُفُ الْمَوَدَّةُ، وَتَغِيبُ السَّكِينَةُ عَنِ الْبُيُوتِ.

🔴الِانْشِغَالُ بِالدُّنْيَا حَتَّى يَنْسَى الْإِنْسَانُ نَصِيبَهُ مِنَ الْعِبَادَةِ وَذِكْرِ اللَّهِ، فَيَمْتَلِئُ قَلْبُهُ بِهُمُومِ الدُّنْيَا، وَيَفْقِدُ طُمَأْنِينَتَهُ.

- قِلَّةُ الذِّكْرِ وَهَجْرُ الْقُرْآنِ، وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَذَهَابِ السَّكِينَةِ.
- سُرْعَةُ الْغَضَبِ وَالِانْفِعَالِ، فَالْغَضَبُ يُفْسِدُ الْعَقْلَ، وَيُورِثُ النَّدَمَ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ.
- التَّنَافُسُ غَيْرُ الْمَشْرُوعِ وَالْحَسَدُ، فَإِنَّهُمَا يَمْلَآنِ الْقُلُوبَ سَخَطًا وَتَبَرُّمًا، وَيَمْنَعَانِ صَاحِبَهُمَا مِنَ الرِّضَا بِقَسْمِ اللَّهِ.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِلَاجِ لِهَذِهِ الْمُعَوِّقَاتِ أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمُ لِنَفْسِهِ وَقْتًا يَوْمِيًّا يَخْلُو فِيهِ بِرَبِّهِ، يُنَاجِيهِ بِالدُّعَاءِ، وَيَتْلُو كِتَابَهُ، وَيُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِهِ، وَيُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَعْمَالِهَا، وَيُجَدِّدُ نِيَّتَهُ، وَيَبْتَعِدُ قَدْرَ الْإِمْكَانِ عَنِ الضَّجِيجِ الْإِعْلَامِيِّ وَالِانْشِغَالِ الْمُفْرِطِ بِالْهَوَاتِفِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَحْتَاجُ إِلَى لَحَظَاتِ خُلْوَةٍ مَعَ اللَّهِ، كَمَا يَحْتَاجُ الْجَسَدُ إِلَى الرَّاحَةِ. وَمَنْ دَاوَمَ عَلَى ذَلِكَ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ سَكِينَةً، وَمَلَأَ نَفْسَهُ طُمَأْنِينَةً وَرِضًا، وَهَانَتْ عَلَيْهِ هُمُومُ الدُّنْيَا وَمَشَاقُّهَا.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا لِلسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ فِي بَيْتِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، فَلْيَبْدَأْ بِإِصْلَاحِ قَلْبِهِ؛ فَإِنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَنْبَعُ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ. فَإِذَا صَلُحَ الْقَلْبُ بِالْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ وَذِكْرِ اللَّهِ، صَلُحَ اللِّسَانُ، فَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْخَيْرِ، وَإِذَا صَلُحَ اللِّسَانُ صَلُحَتِ الْعَلَاقَاتُ، وَانْتَشَرَتِ الْمَوَدَّةُ، وَزَالَتِ الْخُصُومَاتُ، وَعَمَّتِ السَّكِينَةُ بَيْنَ النَّاسِ. فَإِصْلَاحُ الْمُجْتَمَعِ يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ الْفَرْدِ، وَإِصْلَاحُ الْفَرْدِ يَبْدَأُ بِإِصْلَاحِ قَلْبِهِ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِذَا أَصْلَحَ الْعَبْدُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ».

وَهَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْحَقَائِقِ؛ فَمَنْ صَدَقَ مَعَ اللَّهِ فِي سَرِيرَتِهِ، وَاسْتَقَامَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَخْلَصَ لَهُ الْعَمَلَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ، وَأَلَّفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَرَزَقَهُ هَيْبَةً وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ النَّاسِ. فَلَا تَبْحَثْ عَنِ السَّكِينَةِ فِي خَارِجِ نَفْسِكَ قَبْلَ أَنْ تَغْرِسَهَا فِي قَلْبِكَ، فَإِنَّ الْقَلْبَ الْمُتَّصِلَ بِاللَّهِ هُوَ الَّذِي يُشِعُّ طُمَأْنِينَةً عَلَى مَنْ حَوْلَهُ، وَيَكُونُ سَبَبًا فِي نَشْرِ الْخَيْرِ وَالْأَمْنِ وَالسَّلَامِ فِي الْأُسْرَةِ وَالْمُجْتَمَعِ.

الخاتمة

إِنَّ السَّكِينَةَ لَيْسَتْ شِعَارًا يُرْفَعُ، وَلَا كَلِمَةً تُرَدَّدُ، بَلْ هِيَ مَنْهَجُ حَيَاةٍ يَعِيشُهُ الْمُؤْمِنُ فِي عِلَاقَتِهِ بِرَبِّهِ، وَمَعَ نَفْسِهِ، وَمَعَ أَهْلِهِ، وَمَعَ مُجْتَمَعِهِ. وَهِيَ ثَمَرَةُ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ، وَنَتِيجَةُ حُسْنِ الصِّلَةِ بِاللَّهِ، وَعَلَامَةٌ عَلَى صَفَاءِ

الْقَلْبِ وَحَيَاتِهِ. فَمَنْ رُزِقَ السَّكِينَةَ فَقَدْ رُزِقَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَنْ حُرِمَهَا فَلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا مِنْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَنْصِبٍ.

وَإِذَا أَرَدْنَا مُجْتَمَعًا آمِنًا مُطْمَئِنًّا، تَسُودُهُ الْمَحَبَّةُ وَالرَّحْمَةُ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَبْدَأَ بِأَنْفُسِنَا قَبْلَ غَيْرِنَا، وَبِبُيُوتِنَا قَبْلَ مُجْتَمَعِنَا؛ فَنُحْيِي الْقُرْآنَ فِي قُلُوبِنَا تِلَاوَةً وَتَدَبُّرًا وَعَمَلًا، وَنُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَلَى أَلْسِنَتِنَا، وَنُشِيعَ الرَّحْمَةَ وَالرِّفْقَ فِي تَعَامُلَاتِنَا، وَنُلْزِمَ أَنْفُسَنَا الْعَدْلَ وَالْإِنْصَافَ فِي أَحْكَامِنَا، وَنَجْعَلَ الْإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ شِعَارًا وَخُلُقًا، حَتَّى نَكُونَ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ، وَمَصَادِرَ لِلسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ حَيْثُمَا كُنَّا.

**نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا أَنْ يَجْعَلَنَا مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، مِغْلَاقًا لِلشَّرِّ، وَأَنْ يُنْزِلَ السَّكِينَةَ عَلَى قُلُوبِنَا، وَيَمْلَأَهَا إِيمَانًا وَيَقِينًا وَرِضًا، وَأَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَيَرْفَعَ عَنْهُمُ الْفِتَنَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَأَنْ يَجْعَلَ أَوْطَانَنَا آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً، سَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا حُسْنَ الْخِتَامِ، وَيَجْمَعَنَا فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالْقَادِرُ عَلَيْهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.